خواطر طبيب نفسي

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 8984 / 2020

الترقيم الدولي: 4 – 499 – 838 – 977 – 978

الكتاب: خواطر طبيب نفسي

المؤلف: أ . د. عبد الرحمن عسل

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

خواطر طبيب نفسي

أ . د. عبد الرحمن عسل

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

إهداء

إلى رفيقة عمري...

زوجتي الغالية

أ.د. عبد الرحمن عسل

السيد «كرونا»

جاءَ السيدُ «كرونا»

ليغسلَ فم العالمِ المكتظِ بالأكاذيبِ بالصابون.

ليطهِّرَه من الابتسامةِ المخادعة.

ليمحو بفرشتِه ما سطرتُه الأقلامُ الظالمةُ.

ليجعلَ الذئابُ العاويةُ تهرولُ إلى مخابئها.

ليضعَ المتهمَ موضعَ الاتهامِ، وليس القانون.

جاءَ السيدُ «كرونا»

ليكتبَ نعيًا في عالمٍ ماتَ منذُ عهودٍ.

لنتبيَّنَ الأعماقَ التي لا غورَ لها، والأعماقَ التي لا يسبرُ غورها.

ليخبرَنا أنَّ اللغةَ التي يتوحَّدُ عليها العالمُ هي لغةُ المشاعرِ، وأنَّ اللغةَ التي تفرِّقُه هي لغةُ المصالحِ والأنانيةِ.

لنستبصرَ أنَّ الفوضى ضاربةٌ في أطنابِ الغرفةِ التي يسكنُها مليارتُ البشر، وأنَّها تعاني الفراغَ والوحشةَ.

ليخبرَنا أنَّنا نعيشُ في غابةِ العميان، أعمًى يتحرَّشُ بأعمًى، أعمًى يتشاجرُ مع أعمًى.

ليدركَ العالمُ أيَّهما أكثر جوعًا البطون أم الأرواح.

وأخيرًا

جعلَ العالمُ ينظرُ من خلف النافذةِ، يترقَّبُ في الفضاء البعيد، ويحدِّقُ، لعلَّه يرى شعلةَ الأملِ، يبصرُ قائدًا لضميره.

جاء ليوقظَ الجمالَ النائمَ في نفوسِ البشرِ.

وليقولَ لهم في النهاية...

أنَّ الخوفَ من اللهِ بدايةُ الحكمةِ والتعقلِ.

أعطانا الدروس...

فهل نظلُّ نحدِّقُ في الفضاءِ...

وإنَّ

كلَّ شيءٍ يعودُ

وإنَّ

كلَّ شيءٍ يتكرَّرُ

وهل نتعلم؟!

***

شعاع الأمل

ما دامت تمضي بنا الحياةُ، ونحيا في كنفها، فلابد أنَّها تحملُ معها الزادَ، والمأوى، وشعاعَ الأملِ الذي ينبثقُ من شيءٍ ما بداخلنا، من زاويةٍ، أو ركنٍ ما بداخلنا، ركنٍ في قلوبنا، في أرواحنا، بين سجلات أفكارنا، في أخيلتنا، في ذكرياتنا.

ركنٌ ربَّما أغفلته، أو أهملته، أو غابت أبصارُنا وبصائرُنا عنه، أغلقته عنا شواغلٌ أخرى، انغمسنا فيها، وأرهقتنا وأغلقت عيوننا، وأسدلت ستائرَ النسيانِ أمامه، وشقَّ علينا أن نرى ذلك الركن، أو نبصرُ ذلك الفيض الذي يفيضُ بنبضاته، ويشعُّ بنوره، وحرارته، ودفئه، من تلك الحجرة المنزوية في أرواحنا أو نفوسنا.

ذلك الشعاعُ الذي يدلُّنا علي الطريق في حالكِ الأيامِ، وغوائلِ الأزمانِ، ينيرُ السُبُلَ الضيقةَ، ويصرعُ الظلمةَ الحالكةَ والهمومَ المتراكمةَ.

هذا الشعاعُ وتلك اللمسةُ الحانيةُ، والنبضةُ الحالمةُ تحتاجُ مِنَّا أن ننعطفَ نحوها، وننحوَ إليها، ونأنسَ بها، ونرتمي في أحضانها، وننضوي تحت أجنحتها، ونلتمسَ منها العونَ والأملَ.

***

تيار الحياة

الحاضرُ هل يوجدُ؟! وما هو؟

إنَّ الحياةَ أو الزمنَ بمعنى أدق، تيارٌ متدفقٌ ينسابُ بلا انقطاعٍ.

الزمنُ في الوجود الواقعي محكومٌ بدقته، أما في عقل الإنسان فهو ليس على هذه الوتيرةِ، فقد يصبحُ شلالًا سريعَ الانحدارِ، وأحيانًا متثاقلًا تدفعُه المشاعرُ والأفكارُ المتحكمةُ في وثباته.

وقد نعتقدُ أنَّ الحاضرَ الحقيقيَّ هو الآن، هو التوُّ واللحظةُ، والتي في الحقيقةِ لا يمكنُ رصدها أو الإمساك بها، وكذلك لا يمكن انتظارها، هو موجودٌ وغيرُ موجودٍ، ما نسمِّيه الحاضرَ ما هو في الحقيقية إلَّا المستقبلُ القريبُ، فنحن نعيشُ في المستقبلِ على الدوامِ، نحن في القطار مسافرون على الدوامِ مع أقدارنا.

نُولَدُ حاملين تذاكرَ السفرِ ولا نختارُ القطارَ.

ما يكون حاضرًا يصبحُ ماضيًا في توِّه، وبعدها ما يكون إلَّا مستقبلًا، إنَّ ما نسميه حاضرًا وماضيًا ومستقبلًا، هو في مخيلتنا فقط، وإلَّا أين الزمانُ في ذاكرتنا؟! ما هو في الحقيقة إلا صورٌ للمحسوسات من الأماكن، والأشياء، والأشخاص.

الزمانُ ما هو إلَّا الأرففُ الافتراضيةُ التي نضعُ ونرتِّبُ بها هذه الأشياء، هو حيلةٌ اخترعها الإنسانُ، استلهمها من حركةِ الحياةِ من الشمس والقمر، والحقيقة أن الزمانَ هو المكان، وعلى الإنسان أن يعيَ ذلك، أن يعرفَ أين وما يحيطُ بها، ما الفرق بين القرن الأول والأخير سوي في المكان، وماذا حلَّ به، الفرقُ أيضًا هو أنتَ وماذا ألمَّ بكَ أنتَ، والواقع أنَّكَ تقومُ بذلك ثم تلبِسُه الزمانَ .

***

تعذيب الذات

الماسوشية – التلذُّذُ بعذابات وآلام الذات– أو ما يسمى في صورةٍ خفيَّةٍ أحيانًا التضحية، ويبدو أنَّها نزعةٌ إنسانيةٌ شديدةُ التعقيدِ والتخفي، من حيث صورها الحسيِّة والمعنوية، ومن حيث دوافعها وبواعثها الظاهرة والخفية – مع درجاتٍ من الوعي بها إلى حتى عدم الوعي بها تمامًا – ومن حيث آثارها أيضًا.

ولا يكادُ يخلو منها إنسانٌ، المرأةُ والرجلُ، وإن كانت تبدو لدى النساءِ أكثرَ شيوعًا –أو بمعنى أكثر دقةً– أكثر وضوحًا، وهناك من الأمثلة مالا يُحصى ولا يُعدُّ، ومنها على سبيل المثال، الزوجة التي يُذِيقُها زوجُها أصنافَ العذابِ، والمهانةِ، والمذلَّةِ حسيًّا ومعنويًّا، في السِّرِّ والعلنِ، ولا تزالُ تتشبَّثُ به وتمنعُ بضراوةٍ مَنْ يحاولُ أن ينقذَها منه أو يقفَ بجانبها، بل على العكسِ قد تراها في كثيرٍ من الأحايين هي التي تثيرُ زوجَها وتدفعُه في هذا السبيل، في إثارةِ غضبِه!

وهناك من الرجال مَنْ ينحني حتي يصلَ بانحناءتِه إلى أن يلعقَ حذاءَ الآخرين، وإن حاولتَ إيقافه أو أبصرته فربَّما يثورُ عليكَ ثورةً لا تستطيعُ إيقافها!

***

لا تيأس

اليأسُ سقوطُ كلَّ الأوراقِ والتعرِّي الكاملِ، والجفاف، والامتلاء بالظمأ، والانكفاء، والذبول، والتفتت، والتشتُّت بالريح العاتية.

اليأسُ هو الوقوفُ وحيدًا عاريًا في الأحراش مستسلمًا للوحوشِ الضاريةِ الكاسرةِ، والثعالبِ الماكرةِ، والذئابِ الكاسرةِ المتأهِّبةِ للانقضاض.

اليأسُ السقوطُ في الهوةِ السحيقةِ والقاعِ الدامسِ، حيث الدوامات الساحقة، وانقطاع خيوط، وحبال الأمل، واختفاء أطواق النجاة.

اليأسُ هو لحظةُ الوقوفِ على حافةِ الضياع، والانسحاقُ على حافةِ الموت، وبوابة الموتى بأرواحٍ محطمةٍ، وأنفاسٍ لاهثةٍ خانقةٍ، وقلوبٌ منقبضةٌ، وعيونٌ غائرةٌ حائرةٌ.

اليأسُ هو الانزلاق في وحلِ الأفكار الغادرة البائسة، والرمال الناعمة الغائرة.

اليأسُ هو تجرُّعُ الكأسِ الممتلئةِ بالمرارةِ، والبركانُ الذي يغلي، والسوط الذي يهوي.

اليأسُ هو الجرثومةُ التي وصلت للنخاعِ وتوحَّشت حتى استوطنت كلَّ الأركانِ.

اليأسُ هو الأملُ الوحيدُ للفرارِ من كلِّ ما هو أنا، ومن كلِّ ما هو أنتم، ومن كلِّ شيءٍ، هو لحظةُ الفناءِ.

اليأسُ هو التقزُّمُ والضآلة، الشللُ التَّامُّ، والعجزُ الكاملُ، وتفتتُ النفسِ، وانسحاقُ الأملِ، والظلامُ المدلهمُ الدامسُ، واللحظةُ الأخيرةُ، والمحطةُ الأخيرةُ.

***

خلوة هادئة

في أوقاتٍ متفرقةٍ يحتاجُ كلٌّ منا – احتياجًا في مستوى الضرورة المُلِحَّةِ– إلى خلوةٍ هادئةٍ– تطولُ أو تقصرُ. يجدُ الإنسانُ نفسَه منجذبًا لها كما تنجذبُ الأشياءُ إلى المغناطيس.

ولكنها أحيانًا تكونُ كالإسفنجِ التي تمتصه بداخلها، أو شبكةِ العنكبوتِ التي نصبت له فخاخَها، ولا يستطيعُ الفكاك من حبائلها، أو الدوامة التي تشدُّه بعنفوانها، ويتمنَّاها الإنسانُ أن تكونَ كظلِّ الشجرةِ التي ينسابُ النسيمُ من جوانبها.

يحتاجُ الإنسانُ إلى السكونِ، والهدوءِ، وطمأنينةِ النفسِ، يحتاجُ أن يتنازلَ عن عقلِه والتفكيرِ، يحتاجُ أن يسلِّمَ نفسَه وروحَه لعوالمٍ أخري، يحتاجُ إلى التأملِ، والخيالِ، والغوصِ في أعماق أيِّ شيءٍ، يحتاجُ أن يدلي دلوَه إلى بئرِ ذكرياته، وأن يتسلَّقَ إلى شجرةِ حياتِه ليتنسَّمَ تلك الزهور العطرة الزكية.

***

المجد الحقيقي

كلُّ البشرِ يمجِّدون شيئًا ويعلون قيمةَ شيءٍ ما، من اللا مجد (اللامبالاة والعبث اللا منتمي) إلى المجد اللا منتهي. ولكن ليس بالضرورة أن يقتفي الإنسانُ أثرَ ما يُمَجِّدُ، فقد يمجِّدُ اللهَ وهو لا يتَّبعُ أوامرَه، أو يمجِّدُ العبثَ وهو جادٌّ ومحدَّدُ الأهدافِ، فالفكرة أحيانًا قد تنفصلُ عن الواقعِ المُعاش والسلوك اليومي.

التكوينُ الإنسانيُّ من الغرائزِ والدوافعِ، والحياةِ وظروفِها، والأحـداثِ والتفاعلاتِ هي الفيصلُ، كلُّ ذلك قد ينحو بفكرةِ التمجيدِ منحًى مختلفًا في كثيرٍ من الأحايين.

ومن هنا ربَّما نتبيَّن أن المجدَ الحقيقيَّ هو في وعي الإنسانِ بتطورِه النابع من خبراته الحيَّةِ المتفاعلةِ بداخلِه، أمَّا الذين لا يتطوَّرون ويتجمدون في مرحلةٍ حياتيةٍ ثابتةٍ هم من يظلُّ مجدُهم راكدًا وثابتًا، وتظلُّ رؤيتُهم أنبوبيَّةً محدودةً.

***

مخلوق عجيب

الماضي هو ذلك المخلوق العجيب، هو الظلُّ التابعُ لنا والقابعُ وراء ظهورِنا، وفوق أكتافِنا، وفي أعماق ذاكرتنا وأحيانًا المتلصِّصُ علينا.

ما الماضي الذي نريدُ أن يصحبنا؟ هل هو ذلك البيت الممتلئ بخفافيش وطيور الشؤم والظلام، الممتلئ بالماء الراكد الآسن والقاذورات العفنة، مأوي الذباب ونقيق الضفادع ورائحة الجرذان العطنة؟! ماضي الخوفُ نغمتُه، والحزنُ مزمارُه، والذُّلُّ والمهانةُ سلاحُه، والكدرُ مطعمُه ومشربُه.

أنتَ لستَ الماضي، إنَّ الماضي يمكن أن تجعلَه الجزءَ الذي يجبُ أن يموتَ فيكَ، أو يتغيَّر باستمرارٍ كما يتغيَّرُ دمُكَ، وكما يتغيَّرُ جلدُكَ، وكما يتغيَّرُ جسمُكَ كليًّا يجبُ على عقلِكَ أن يملكَ قوةَ التغيرِ التي يملكُها بدنُكَ.

الماضي ليس حتميًّا إنَّه ورقةُ الخريفِ التي لابد أن تسقطَ لتتلوها الورقةُ اليانعةُ الزاهيةُ، اجعل من عقلِكَ الشجرةَ القادرةَ على الإزهار والإثمار!

***

القمر والبشر

القمرُ كائنٌ لم يحظَ بمثله كائنٌ آخرُ؛ فله مكانتُه لدى كلِّ صنوفِ البشرِ، وخاصةً العشاقَ الوالهين، فهو لهم الحلمُ الوليدُ، فكما يُولَدُ حبُّهم صغيرًا مضيئًا فهو يغازلُهم بميلادِه أيضًا، باعثًا الأملِ في أن تكتملَ دوراتُ حبِّهم، وحياتُهم بالضوءِ الكاملِ الباعثِ على السرور.

وكما أنَّ حبَّهم عالٍ سامٍ مترفِّعٍ، فهو مثالٌ لهم، وإن اختفى وهجُ حبِّهم فلابدَّ أنَّه سيعودُ ويتألَّقُ من جديدٍ كالقمرِ، موجودٌ في مكانٍ ما، متوارٍ خلف التلالِ أو خلف الغيوم، ولابد أن يعتليَها أو تنزاحَ تلك الغيومُ. يمثِّلُ لهم القمرُ الصفحةَ النقيَّةَ البيضاءَ الناصعةَ المترفِّعةَ السامقةَ.

القمرُ للعشَّاقِ الشعاعُ المتوهِّجُ في القلوب هو الحياةُ، أمَّا لأولئك الشعراءِ والفنانين فهو المدُّ والجزرُ، الأخذُ والردُّ، المنعُ والعطاءُ، صورةُ الحبيبِ و... وهو عند الناسِ جميعًا، الليالي المؤنسةُ، والحكاياتُ المبهجةُ.

***

وزنك الحقيقي

ليس كثرةُ ما تحمله من معارفٍ هو ما يمنحُكَ الثقلَ الحقيقيَّ، فالأوزانُ الثقيلةُ لا تعني الثراءَ، بل ربَّما تُثقِلُ صدرَكَ، وترهِقُ عقلَكَ، وتكونُ عائقًا على الإبحارِ في الأعماقِ، أو الطيرانِ إلى الأفاقِ.

وأيضًا أن تكونَ خاويًا، وأجوفًا فلن يكونَ سبيلُكَ إلى التحليقِ والطيرانِ، فقد تكونُ ريشةً في مهبِ الرِّيحِ، أو كرةً يتلاعبُ بها.

فما تحملُه أو تتباهى به من معارفٍ ضخمةٍ، لا تنتمي إلى واقعٍ حيٍّ أو خيالٍ مبدعٍ، أو علمٍ نافعٍ، يحرمُكَ من الصفوفِ الأولى في محرابِ العلمِ الحقيقيِّ، ويجعلُكَ في المؤخرةِ مع الصبيةِ الذين يستمتعون ويلهون بالدُّمَى الميتةِ، والتي لا تدهِشُ غيرَهم، أو من ينحو نحوهم.

وهناك من يراه الناس حاملًا لمشعلِ الثقافةِ ولوائِها، والتنويرِ والتبصيرِ؛ لأنَّه يرتدي لباسَ الغموضِ والمجهولِ، فيرتدي الأزياءَ المزركشةَ، ويحملُ السيوفَ اللامعةَ، ويبتدعُ من التراكيب اللُّغويةِ ما لم يقله غيرُه، فيعقِّدُ البسيطَ، ويجمعُ المفردَ، ويُفْرِدُ الجمعَ، ويسطِّحُ العميقَ، ويعمِّقُ المُسَطَّحَ، ويأتي بالأعاجيبِ من التراكيبِ فاقدةِ الفكرةِ، والمعنى.

وقد ترى احتفاءَ الآخرين به، وقد يدفعُهم الخوفُ لذلك الموقف، حتى لا يوصمون بالجهل، فالشكلُ هو ما يهمُّهم، ولا يدركون أنَّ هؤلاءِ صبيةٌ – وإن بلغت أعمارُهم أراذلَ العمر– لا يزالون يبحثون عن مكانٍ وهويةٍ، من خلال لفت الأنظار بالشكل الخادع، الذي يتخفَّى بالألوان المزركشةِ، وبالحناجرِ النحاسيةِ الضخمةِ الجوفاءِ الخاويةِ.

***

ربيع... وخريف

أتى الربيعُ، ولكنِّي لا زلتُ في الخريفِ عاريًا، منزوعةً أوراقي مهلهلةً، وعليلَ الروحِ خائرًا، ومبعثرَ القوى، مرهقَ النفسِ، أشعرُ بعدم الجدوى، تنهشُ قلبي الطيورُ الجارحةُ، وتسرقُ النومَ وأحلامي.

أتي الربيعُ وأنا في شتائي القارس، وما زالت أمطارُه كالسياط تلهِبُ ظهري، وتؤرِّقُ مسامعي، وظلامُه الدامسُ المُدلَهِمُ يجثمُ على جفوني، فلا أرى غيرَ أحلامي الباردة الميِّتةِ تتناثرُ بين جوانحي، وتخمِدُ عواطفي.

أتى الربيعُ وأرى الأشجارُ المتراصةُ صفًّا وراءَ صفٍّ، كأنَّها بقايا الأمواتِ تتقبَّلُ العزاءَ فوق قبري، والزهورُ الملونةُ جامدةٌ قد زال بريقُها، وأغلقت مسامَها فلا ينبعثُ عطرُها، والطيورُ ساكنةٌ في أماكنها عاجزةً عن التحليقِ، لا تشدو إلَّا بالآهاتِ والصرخاتِ.

أتى الربيعُ، والموتُ يسكنُ بداخلي، ويحيطُ بي، ويلفُّ رداءَه حولي ويُحكِمُ قبضته عليَّ.

أتى الربيعُ، والموتُ يقلِّبُ صفحاتِ خيالي، ويرسمُ خطواتي.

اللهم أسعد قلوبَ عبيدِكَ، واكتب لهم الخير!

***

حديقة حيوان

إذا شعرتَ بالضيقِ، أو الألمِ، أو الملل في احتفالٍ أو مؤتمرٍ، وأردتَ أن تبعثَ في نفسِكَ البهجةَ، والمرحَ، والسرورَ، تخيَّل أنَّكَ في زيارةٍ في حديقة الحيوان، وفيها أقفاصٌ متنوعةٌ، حيث طويل العنق، والطاووس المختال، والغوريلا المنهكة، والزئير، والمواء، والنباح، والنعيق، ووووو...

وتخيَّل وأنتَ تسيرُ في الممرَّاتِ توزِّعُ ابتساماتِكَ وتحياتِكَ، لبًّا، وفولًا، وموزًا. بلا شكٍّ لن يدخلَ إلى نفسِكَ ملٌّ، وستحبُّ تلك الأماكن كثيرًا، ولكن إيَّاكَ وحارسَ الحديقةِ، وشباكَ التذاكر!

***

توحش بشري

عندما ينتابُ الإنسانَ التوحشُ، ويغريه المالُ، والسلطانُ، والقوةُ، والتسلطُ، فإنَّه لا يوقفُه شيءٌ، حيثُ يتعاظمُ إيمانُه بنفسه، وينتفضُ ريشُه، وتنتفخُ أوداجُه، وتتصاعدُ نفسُه بكبريائها إلى مرتبة الآلهة، فيكسوه الوهمُ بأنَّه يتحكَّمُ في كلِّ شيءٍ - إلَّا نفسَه طبعًا- فهو ينتفخُ وينتفخُ، إلى أن يعتريَه ما يعتري البشريَّةَ جمعاء...

يتسلَّلُ إليه الضعفُ فتخورُ قواه بلا قصدٍ منه، ولكن تظلُّ حُمَّى الطغيانِ تفوحُ من عقله، فلا يُسْقِطُه إلَّا لهيبُها، فيحترقُ بنيرانها.

***

إله... وشيطان

إنَّ الإنسانَ مشروعُ إلهٍ صغيرٍ، وشيطانٌ كبيرٌ، وأحيانًا ملكٌ متعالٍ، وحيوانٌ شَبِقٌ، وجمادٌ صلبٌ بلا ليونةٍ، ونباتٌ متسلقٌ أو مزهِرٌ.

الإنسانُ هو معجونُ الحياةِ، هو المخلوطُ بها، وفيها، ومنها، ترى فيه كلَّ الحياةِ، ترى فيه عالمَ الغيبِ والشهادةِ، والنورَ والظلامَ، والفرحَ والبكاءَ، والارتفاعَ والسقوطَ، ما من منظومةٍ من منظومات الحياةِ ولا مفردةٍ منها، إلَّا وتسكنُ زاويةً من زواياه.

مَنْ يعرفُ الإنسانَ بحقٍّ يعرفُ اللهَ والأكوانَ، يعرفُ كلَّ شيءٍ، ولكن هيهات إلى الوصولِ لعالمِ الإنسان، فإنَّه صعبُ المنال!

***

ألحان الموتى

كثيرًا ما نشكو من أنَّ أعمارنا قد سُرقت، أو كم هي قصيرة الحياة!

والحقيقة أنَّ الحياةَ ليست قصيرةً، ولكنَّنا في الغالب لا نفهمُها إلَّا متأخرين .

ونتهم النومَ أحيانًا، وأنَّ النومَ يختطفُ من أعمارنا ثلثَها، فهل هذه الحقيقة؟!

الغالبُ أنَّ النومَ يضيفُ إلى حياتنا، ولا يأخذُ منها.

إنَّ النومَ هو المصفاة التي تنقِّي حياتَنا من الشوائب، وإلَّا لماذا نتوسَّلُ إلى الخوفِ أن يتركَنا ننعمُ بالنوم؟ وندعوه أن يتركَ النومُ يسلبُ أعمارنا؟!

وإذا انتقلنا إلى الثلثين الأخيرين من أعمارنا كيف نعيشهما – الكثير من أعمارنا نقضيه في انتظارِ أقواسِ النصرِ، وتماثيل الفخر المبنية بالحجارة، أو حتى بالذهب – لا فرق لأنَّكَ ستكونُ لستَ موجودًا؛ لأنَّكَ لستَ حيًّا!

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه في تابوتِ الانتظار والتوقُّع.

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه في مقابر الخرافة، والأفكار الباهتة، والتقاليد البالية.

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه على أَسِرَّةِ الألم، والحسرة، والندم.

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه في سجون الحمقى، أو على تُرَّهات الأغبياء.

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه في الحصول على ما لا نريدُ، وحملَ ما لا يفيدُ.

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه في الأحلام والأوهام.

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه في نسجِ الأقنعة للتواري خلفها، ومواجهة ما يسمي الظروف والواقع المزيف.

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه...

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه...

الكثيرُ من أعمارنا نقضيه...

وهكذا نقضي أعمارنا كأمواتٍ بأقدام، ونعزفُ ونطربُ لألحانِ الموتى.

***

جوهر الذاكرة

الإنسانُ في جوهرِه هو ذاكرتُه، وكيف لا؟! فعندما يفقدُها أو يفقدُ بعضَها، أو تخذلُه، أو تتشوَّه، أو تعلوها سحابةٌ، أو تكسوها غمامةٌ، تتوه معالمُه، وتتكسَّر ذاتُه.

فذاكرتُه هي بيته وملاذه، هي كوخه أو قصره، هي مطبخه الذي يُنضِجُ فيها نفسَه، وقد يتخذها معملًا لأفكاره ومشاعره، هي التي تمدُّه بالزاد والقوت الذي يستعينُ به في مضمار الحياة، هي حجرة نومه الدافئة، أو الملتهبة، أو الباردة، هي وسادته التي يركن ويضع رأسه عليها، هي شمسه التي تشرق أو تغرب، هي نسماته وزوابعه، هي العصا التي يتوكأُ عليها، ويهشُّ بها عن نفسِه، عندما تتكالبُ عليه غوائلُ الزمان، هي الغطاء الذي يتدثَّرُ به في الأيام القاحلة.

هي التي تحملُ قاموسَه الكاملَ، الذي بناه خطوةً خطوة، ولبنةً لبنة، وحَبَكَ مفرداتِه وأحكمها.

***

الخوف المخفي

كثيرًا من مخاوفنا تجدُ طريقها للإدراك والفهم، ولكن يُلِمُّ بنا أحيانًا خوفٌ يصعبُ إدراكه وفهمه، وقد لا نستطيعُ إدراكَ مصادرِه، وقد يشتدُّ حتى يكونَ رعبًا لا يُطاقُ، ووحشًا لا يمكن السيطرة عليه، أو الفرار والنجاة منه، يجتاحُ إلى كلِّ جوارحنا، ويعتبِرُ حياتَنا لا قيمةَ لها ولا وزنًا.

خوفٌ يأتي من ذلك الجِنِّيِّ الذي يختبأُ خلفَ الستائرِ الداكنةِ المنسدلةِ على حوائطِ نفوسنا المتعبة.

***

ذهول العقل

أحيانًا وفي غمرةِ الأحداثِ الجسامِ ووهجِها قد يفقدُ العقلُ الرؤيةَ ويعتريه الشَّللُ والجمودُ، أو ما يُسَمَّى الذهول، وأحيانًا أخرى تتبعثرُ أو تتهيَّجُ الأفكارُ، كمن حاول أن يعتدَّى على خليَّةِ نحلٍ متناسقةِ النَّظمِ، متوافقةِ الأفعالِ، متمنِّيًا عسلها أو مشتِّتًا شملها، فيبعثرُ نظامَها، ويستولي على مملكتها، حينها تكونُ الأفكارُ كطنينِ النحلِ الدوَّارِ اللاهث، وتظلُّ الأفكارُ تطنُّ، وتلدغُ وتُدمِي، وقد يتفاقمُ أثرُها ويتعاظمُ، ويؤدِّي إلى أسوأِ العواقب.

***

مستنقعات وقاذورات

لماذا الخفافيشُ لا تحيى ولا تنشطُ إلَّا في الظلام؟!

والديدانُ لا تهوى إلَّا المستنقعات؟!

والذبابُ لا يفترشُ إلَّا القاذورات؟!

لماذا؟

حتمية بيولوجية إذن، فلماذا هناك الخفافيش، والكثير من الديدان والذباب بين البشر، بين من يملكُ حقَّ التمييز والاختيار، وأيَّةُ حتميَّةٍ تجبره؟! وأيَّةُ ضرورةٍ تدفعه؟!

هل هي حتمية العقلِ الذي ترعرعَ في الظلامِ، وارتـوى من المستنقعات، وقضى لياليه مفترشًا القاذورات؟!

***

نعمة الخيال

من النعمِ الكبرى التي اختصَّ بها اللهُ الإنسانَ دون سواه من المخلوقاتِ نعمةُ الخيالِ، أو التخيُّلِ، أو التصوُّرِ، فالإنسانُ هو القادرُ على أن يرى في الحجرِ الأصمِّ إلهًا يُعبدُ أو بيتًا يُسكنُ، ولكنَّ تلك النعمةَ كما في النعمِ الكبرى إن لم يراعِ حقَّها، أو يعرف قيمتَها ويفهم مقصدَها فإنَّها تنقلبُ إلى نقمةٍ كبرى، وتصبحُ هولًا يهلكُه وغولًا يغتالُه، فقد ينقلبُ الخيالُ إلى قلقٍ يكتوي بناره ويتلظَّى بلهيبه، وقد ينقلبُ أيضًا إلى شكٍّ حارقٍ وسُمٍّ قاتلٍ.

في القلقِ والشكِّ حياةُ الإنسانِ وموتُه، قصرُه وقبرُه، فبالقلقِ الموزونِ المنضبطِ تتفتَّحُ الأزهارُ، وتُشَذَّبُ الأوراقُ، وتنضجُ الثمارُ، وبالشكِّ الواعي المستبصر يكون الإنسانُ إنسانًا، يتحقَّقُ به وجودُه ويستوي له قعودُه، فيأمنُ ويرتقي.

***

تملُّك زوجي

من مظاهر التملُّكِ التي يسعى إليها الزوجان، ألَّا تسمحَ له بالوصول إلى مصادرِ القوة، أو الاستحواذ على أسلحةٍ تمكِّنه من إحرازِ أيَّةِ جولةٍ من جولاتِ الانتصار، فهي لا تريدُ لديكها أن يصيحَ، ولا لطاووسها أن ينتفشَ ويختالَ، ولا لأسدها أن يزأرَ، تريدُه داخل القفصِ مصابًا دائمًا بالدوار.

وهو يريدُ أن يُقْنِعَ الحَمَلَ أن يعودَ إلى الحظيرة، والدجاجةَ أن ترقدَ على بيضها، والطيورَ أن تعودَ إلى أعشاشها...

إنَّ الرجلَ والمرأةَ يجبُ أن تكون حياتهما في تكاملٍ وانسجامٍ مثل الشمسِ والقمرِ نورٌ وضياءُ، والليلِ والنهارِ سكنٌ وعناءُ، والبحرِ والنهرِ نقاءٌ وارتواءُ، والزهرةِ والثمرةِ جمالٌ واشتهاءُ.

***

تذويب الهموم

الهمومُ حينما تأتي، فقد تأتي فجأة، كمن ألقى حجرًا في تيارِ الحياة المتدفق، أو تتراكمُ رويدًا رويدًا على جروحِ الحياة، كطبقاتٍ من الكثبان، فتكونُ عقبةً في استمرار تيار الحياة المتدفق.

وتحتاجُ دومًا إلى الذوبان، وتتعدَّدُ الرؤى في وسائلِ الذوبان بعددِ صنوفِ البشر، فمن يذيبُها في الشراب والسكر، والغياب، ومن يذيبُها في الألحانِ والموسيقاتِ الحالمةِ، ومن يذيبُها بالكلام، ومن يذيبها- بالضحكات، ووو...

أمَّا أعظمُ ما يذيبُ الهمومَ، فهو- الحياةُ.

***

عطر الوجود

الضحكُ الحقيقيُّ في شتَّى صوره هو الإعلانُ عن الحياة، عن أنَّ هناك أملًا، عن أنَّ هناك قلبًا يخفقُ، ووجهًا يتألَّقُ ويشعُ ضوءًا، وجسدًا ينتعشُ إحساسًا بوجود الذات، والعالم، والحياة.

ففي الضحكِ تظهرُ الإنسانيةُ في أبهجِ وأزهى صورِها، فهناك الضحكةُ القاهرةُ للكراهية، وهناك الضحكَةُ الظافرةُ بالودِّ، والحبِّ، وخلافه.

تلك مع الضحكات الحقيقيةِ أمَّا المصطنعة، والزائفة، والمتوارية، والخفيَّة، والخائنة، وغيرها فلكلٍّ منها دوافعها، وأسبابها، وآثارها.

الضحكُ هو عطرُ الوجودِ والإعلانُ أنَّ هناك إنسانًا موجودًا .

***

الإنصات للكوارث

في الكوارث تجبرُنا الطبيعةُ أن ننصتَ إليها، نقرأ مفرداتها، نرى ما يجولُ في أعماقها من عيونها الغاضبة.

في الكوارث وفي الظلام تبدو الحياةُ معقَّدةً، لأنَّنا لا نرى شيئًا، أمَّا العقولُ الخلَّاقةُ فترى في الحياة البساطةَ، وأن هناك تفسيراتٍ بسيطةً لكلِّ شيءٍ.

في الكوارث تنتعشُ الخرافةُ والجهلُ جنبًا إلى جنبٍ مع العلمِ، وكلاهما يصنعُ الحكمةَ التي تكون مصدر القوة الذي نحتمي به.

في الكوارث تلهو العقولُ الضعيفةُ بالدُمَى وتعبدُ عجلَ السامري، أمَّا العقولُ الخلَّاقةُ فهي التي تشعرُ بالخوف، ولكن تملكُ رباطةَ الجأش لتنسفَ العجلَ نسفًا .

في الكوارث ترى العقولُ الخلَّاقةُ أنَّ عجلةَ التاريخِ تدورُ، وأنَّ مرحلةً جديدةً تأتي، وطورًا يتجدَّدُ، وأرضًا جديدةً تُخلَقُ ومولودًا يُولدُ، وأنَّ حياةً أكثر أملًا وجمالًا تُبعثُ من جديد.

الكوارثُ ثورةٌ على المخدرِ الذي أصابنا بالتورمِ والانتفاخِ.

عندما تثورُ الطبيعةُ، لا تملكُ إلَّا أن ترفعَ كفَّيكَ إلى الخالقِ لهذه الطبيعة، لينيرَ بصيرةَ العقولِ الخلَّاقة.

***

سلطة الضمير

الضميرُ يمثِّلُ السلطةَ بكلِّ ضروبها، بكلِّ خيرِها وشرِّها، بكلِّ نفعِها وضررِها، سلطةٌ مقيدةٌ على أيِّ حالٍ، سلطةٌ غيرُ قابلةٍ للنقاشِ، سلطةٌ تُؤخذُ جملةً لا تفصيلًا.

سلطةُ الدين، العرفُ، الدولةُ، الأبُ، الزوجةُ، ووو... وتظلُّ هذه السلطةُ تسكنُ الطابقَ العلوي، ولها أولويةٌ قصوى وهامة في اتخاذ القرارات.

من الأشياء العجيبة والمدهشة، والتي تُظهِرُ التأثيرَ القويَّ والعنيف لهذه السلطة في أعماق نفوسنا، أنَّكَ وأنتَ منفردًا بذاتِكَ، وتريدُ أن تدوِّنَ شيئًا ضدها أو يخالفها، أو تبدي وجهةَ نظرٍ مغايرةٍ لها، تجدُ فيَّ-في- ومِنْ نفسِكَ حرجًا شديدًا، وربَّما تتراجعُ عن تدوينه أو البوحِ به، وإن كنتَ موقنًا على وجهِ اليقينِ أنَّه لا يعلمه أحدٌ غيركَ.

وهكذا تتجذَّرُ السلطةُ والضميرُ بداخلنا، وتنمو، وتثمرُ القيودُ والأغلالُ، وتلقي بأغصانها ظلالًا من الخوف.

***

قيود الكلمات - إنسانية

الكلماتُ هي أضعفُ أداةِ تعبيرٍ عن الإنسانِ والحياةِ، الكلماتُ صناعةُ البشرِ، كم منها انكمش، واختفي، واندثر! كم من المعاني والأحاسيس ماتت بداخلنا! لأنَّنا لا نملكُ الكلماتِ التي تعبِّرُ عنها.

الكلمات قيدٌ وقفصٌ صنعه الإنسانُ ليسجنَ نفسَه فيه.

الكلماتُ لا تعبِّرُ إلَّا عن نفسها، لا تعبِّرُ عن الإنسان، ولا عن الإنسانية، ولا عن الحياة.

الإنسانُ أكبر من الكلمات.

التعبيرُ عن الإنسانِ، والإنسانيةِ، والحياةِ، يحتاجُ تعلُّمَ الكثير من اللغات.

***

مدرسة المِحَن

الانتظارُ، العزلةُ، الملَلُ – سَمِّهم ما شئتَ.

قد تعلِّمُنا المحنُ أنَّ في– الانتظارِ، العزلةِ، الملَلِ – روحًا وحياةً لم نكن نراها، وأملًا لم نكن نبصرُه.

قد يكونُ– الانتظارُ، العزلةُ، الملَلُ – أحيانًا طوقَ نجاةٍ للغرقى في دوامةِ بحرِ الحياة.

يقبلُ – الانتظارُ، العزلةُ، الملَلُ – كصديقٍ يبسطُ لكَ ثيابَه، لتلقِي ما في جعبتِكِ، لتحرثَ أرضَكَ، لتدفنَ آلامَكَ، ولتنبتَ بذورَ بستانَكَ، لتنثرَ أحلامَكَ، لتتنسَّمَ زهورَكَ.

قد يكونُ– الانتظارُ، العزلةُ، الملَلُ – أحيانًا فترةَ حضانةٍ لميلادٍ جديدٍ.

لا تخاصمُ – الانتظارَ، العزلةَ، الملَلَ – فيصبحُ عدوَّكَ، بل اكتشف ماذا تحملُ لكَ.

***

اكتمال الصورة

أكثرُ ما يؤلمُ النفوسَ بعد أن يمرَّ بها العمرُ أو تنقضي السنون وتكتوي بالخبرات أن يتنازلَ الإنسانُ عمَّا كان يؤمنُ به، أو يتغيَّرَ ما كان يتشبَّثُ به، أو يفعلَ ما كانَ يزدريه، أو يصيبه ما كانَ يسخرُ منه، أو لا يستطيعُ أن يفعلَ ما كان ينصحُ به غيره، فتراه في أحدِ محطاتِ حياتِه يسخرُ من الجبناءِ، ثم ها هو تحلُّ عليه لعنةُ الجبنِ والخوفِ.

إنَّه كان يرى وجهًا واحدًا، وجانبًا وزاويةً واحدةً، ومفردةً واحدةً من المعطيات.

إنَّ الاستمرارَ في الحياةِ يضيءُ كثيرًا من الجوانب.

إنَّ السعيَ والخطَى يفتحُ الطرقَ والأبوابَ، وبه تكتملُ الصورةُ بالاقتراب منها، والسعي في اتجاهها.

***

صُنَّاع الحياة

الذين يصنعون الحياةَ هم الذين انغمسوا فيها، وتذوقوها، وتلظَّوا بلهيبها، واكتووا بنيرانها، وتقلَّبوا على فُرُشِها الممتلئةِ بالأشواكِ، ورأوا بأعينهم خبياها، وسمعوا إلى أطيافها وهمساتها، وتلمَّسوا دروبَها، واعتلوا أسوارَها، وارتادوا جبالَها الوعرةَ، وتشمَّموا سحرَها وأدرانَها، واختبروا عبثها وجديتها، ولم يركنوا إلى الفراش الوثير، ولا مالوا إلى الرخاوةِ والجبنِ، ولا اتَّكلوا إلى ميراثِ الآباء، ولا قنعوا بالعيش تحت ظلال الدِّعَةِ والسكون، ولا ارتضوا حياةَ الكسالى.

***

حقائق مريرة

هل الحقيقةُ هي ما يسعى الإنسانُ إليها أو يتلمَّسها ويبحثُ عنها، ربَّما يكون ذلك صحيحًا في بعض الأحيان.

ولكن في معظم الأحيان يعيشُ الإنسانُ وباختياره محاولًا بشتَّي الطرقِ البعد، وإخفاء، وتشويهَ، وتبديل الحقيقةِ أو الحقائقِ، ويبني جسورًا قويةً ومتينةً من الدفاعات، ويرسمُ صورًا ويضعُ ألوانًا ومساحيقَ، ويجمِّلُ بستانَه ويعلي من أشجاره للحيلولةِ دون الوصولِ إليها وإخفاءِ معالمها.

لأنَّ أكثرَ الحقائقِ وخاصةً المتعلِّقةَ بمصيره مُرَّةٌ ومريرةٌ، وتقفُ في حلقه كالغُصَّةِ، وقد تحولُ بينه وبين التنفسِ من نسيمِ الحياةِ، وتسبِّبُ له الاختناق، والشعور بالدوار العقلي، والغثيان النفسي.

***

ضربة قاضية

الزمنُ يمضي ويسيرُ، ولا يرهقُه المسيرُ، يطوي الليلَ والنَّهارَ. يمرُّ بجانبنا وحولنا ولا نشعرُ به، وقد نحتفي به ولا نراه، ولكنَّ لخطواته وَقْعًا على مسامعنا، وعندما نتعثرُ على عتباتِه نراه على قسماتِ وجوهنا، في عظامنا، وينيرُ رءُوسَنا بالشيبِ النذيرِ.

الزمنُ جزءٌ منَّا في كلِّ خليةٍ من خلايانا ونسيجٍ من أنسجتنا لا ينفكُّ عنَّا.

الزمنُ قد يسبقُ خطانا، ويقذفُ بنا في أتونِه مبكرًا، وأحيانًا قد يتخلَّفُ وراءَنا يوهمنا أنَّه ليس وراءَنا، ولكن لابد أنَّه سيدركُنا، ويلحقُ بنا، ويوقعنا بالضربة القاضية.

***

حرية الاختيار

هل توقفت الطيورُ عن الهجرةِ والتغريدِ كلَّ صباحٍ؟!

هل ملَّت الحيواناتُ القيامَ بنفسِ الأعمالِ بلا انقطاعٍ؟ وهل الأسماكُ، والحيتانُ، والشجرُ، والأفلاكُ، والليل والنهار، تشعرُ بالملل؟!

حتى ما بداخلك الكثير: القلبُ، والكُلَى، وجميعُ الأعضاء تقوم بنفسِ الأعمال، إنَّ كلَّ ما ليس له اختيارٌ دائبٌ لا يشعرُ بالسأم، ولا بالملل، أو الضجرِ، أنتَ الوحيدُ الذي يتملَّكُكَ هذا الشعور، الجزء فيك القادر على الاختيار.

الشعورُ بالملل، والرتابة، والسأم، والضجر، دليلٌ أنَّ الإنسانَ حرٌّ وقادرٌ على الاختيار.

***

آفةُ الإطراء

الإنسانُ بفطرته مجبولٌ على الإطـراء، ربَّما ذلك نابعٌ من الإحساسِ المتفاعلِ المتناقضِ بداخله- على الدوام- المتوثِّبِ بين الضعف والقوة.

الإطراءُ يشبعُ غريزةَ التسلط ويعزِّي ويسلِّي غريزةَ الضعف. الإنسانُ في حاجةٍ دائمةٍ له، وقد تتعدَّدُ صورُه، بالكلمات أحيانًا، وهذا هو الغالبُ، وقد يكون من الحركاتِ المنبعثةِ من الآخر ويقرأها على هذا النحو، من ابتسامةٍ معبِّرةٍ إلى هديةٍ شاكرةٍ وممتنةٍ.

آفةُ الإطراءِ الانحرافُ من خلال الإكثار، أو التشوه بأن لا يكون في محلِّه فينقلبُ سخريةً.

***

الخجل الحقيقي

قد يبدو الخجلُ تصغيرًا للذات، ولكنَّه في الحقيقة تعظيمًا وتكبيرًا للتصورات والتخيلات، تكبيرًا للأوهام والمعتقداتِ، تحفيزًا للمشاعر المقلقة وإثارةً للحزنِ الكامنِ في الأعماقِ.

الخجلُ ليس انسحابًا للوراء بل تحفزًا، وانسياقًا، واستباقًا للمقدمات التي تلقيها التصورات والأوهام.

الخجلُ يمنعُ السؤالَ والإجابةَ، يمنعُ الحقيقةَ الساطعةَ، الخجلُ يمنعُ الاعتراف بالحبِّ.

الخجل ستارٌ وغمامةٌ تحجبُ الرؤيةَ المتبصرةَ، والحقائقَ الظاهرة.

الخجلُ رؤيةٌ الإنسانِ القاصرةُ للذات ولطبيعةِ الأشياء وما يدور من تفاعلات.

الخجلُ آفةٌ إلَّا أن يكونَ معلومَ الأركانِ موضِّحًا الأهداف.

***

صفحة الحياة

الكثيرُ من البشرِ أرقامٌ في صفحةِ الحياةِ، أرقامٌ كُتبت على الرمالِ، تمحوها رياحُ الزمانِ، أو أوراقٌ على شجرةِ الحياةِ تتعرَّى أو تُسقِطُها عندما يأتي الخريف، أوراقٌ لا تثمرُ بل تنتظرُ دورَها في أن تذبُلَ وتسقطَ من تلقاء نفسها، أو مع أيَّةِ هبةٍ للرياحِ، أو ريشةٌ على جناحِ الحياةِ لا يعبأُ بها أحدٌ، وقد تطيرُ وتنزوي ولا يشعرُ بوجودها أحدٌ، ولا يحسُّ بسقوطها أحدٌ.

أرقامٌ وأوراقٌ وريشٌ بلا عمرٍ ولا مظهرٍ. إنسانٌ أتى لكي يعودَ، بلا رسالةٍ ولا غايةٍ، ولا أن تكونَ له بصمةٌ أو توقيعٌ في سجل الحياةِ، لا تتجاوزُ احتجاجاتُه غير الصرخةِ الأولى حين الميلادِ وتأوهُه في النزعِ الأخير.

***

عواطف ومشاعر

إنَّ عمرَ العواطفِ والمشاعرِ – في حقيقته – قصيرٌ، وتأخذُ دورتَها ودرجتَها من العلو ثم الانخفاض، فهي محدودةُ الوقتِ والشدَّةِ، هي كالموجِ ذات مدٍّ وجذرٍ، تسيرُ برياحِ الحياةِ فتعلو وتهبطُ، وقد تشتدُّ كالهدير، أو تتهادى كالنسيمِ، أو تسكن، ولكنَّ المؤلمَ أن لا يعي الإنسانُ طبيعتَها، ولا يعلمَ مسارَها، فيتعذَّبَ بها أو يتوهَّمَها على غير طبيعتِها، وأنَّها دائمةٌ، فيحلُّ به العذاب، والذي هو هنا عبثٌ لا طائلَ من ورائِه، فالمشاعرُ – في أحد جوانبها – طاقةٌ لتحريكِ الأفكارِ، وبعثُ الهممِ ولتسليطِ الأضواء، وإيقاظِ الوعي، على ما يدورُ بخَلَدِ الإنسان من أفكارٍ، وما يحدثُ بداخله من أشياءٍ، العواطف هي إثارةٌ، وتنبيهٌ، ووعيٌ.

***

وجع القلق

الضعفُ يولِّدُ القلقَ، والقلقُ موجِعٌ ومؤرِّقٌ للإنسان، إنسانٌ في سفينةٍ، يبحثُ عن برٍّ، عن مكانٍ آمن، عن أرضٍ تأويه وسماءٍ تحميه. وضع عالم النفس الكبير «ماسلو» الأمن كثاني درجةٍ على السلم الإنساني للارتقاء، بعد إطفاء الغرائز البيولوجية المُلِحَّةِ من الأكل، والشراب، والنوم، والجنس... وهكذا تصبحُ الحياةُ الآمنةُ ضرورةً، وأهمَّ ما يشغلُ خاطرُه، والهاجسَ الكبيرَ الملازمَ له.

الأمنُ بمفهومه الشامل، البيولوجي، والعقلي، والعاطفي، والروحي، الأمنُ الذي يرتبطُ بالحريَّةِ، والتي تستدعي بالضرورةِ المسئولية.

***

الإنسان الشرير

الشريرُ يدركُ شرَّه ويعرفُ عواقبَه، وعلى الجانبِ الآخرِ يعلمُ أنَّ العالمَ مكتظٌ بالشرِّ، مليءٌ بالوحلِ، والحشراتِ، والقاذوراتِ.

ويرى أنَّه صنيعةُ ذلك العالمِ الظالمِ، وأنَّه قد أرضعه وأطعمه إياها، فيريدُ أن يتقيأها عليه، وأن يردَّ بضاعتَه إليه.

يريدُ أن يخلعَ تلك الألبسة من الزيفِ، ويقذفُها في وجهِ العالمِ الزائف، وأنَّه لن يضيفَ إلى تلك القاذورات سوى ما تجودُ به قريحتُه، والتي لن تزيدَ عن بصقةٍ في مستنقعِ النفاياتِ والأوساخِ، والتي يرى أنَّه لا يستحقَ غيرها.

***

صديقي الأديب

سألتُ صديقي الودود، من أين تأتي بهذه الألفاظ المؤثرة؟

فأجابَ، من المعاجمِ ومن منطوقِ الناسِ والأكـوان القريبة والنائية.

فأردفت: ومن أين تأتي بالتراكيب الموحية؟!

فأشارَ إلى صخرةٍ أمامنا، واستطردَ: من البشر من يرى في هذه الصخرة إلهًا يعبده، أو شيطانًا يرجمُه، ومن يرى فيها صورةَ حبيبتِه التي يعشقُها، أو غريمِه الذي يمقتُه، ومنهم من لا يرى فيها إلَّا حجارةً، فيلتقطُ منها واحدًا، يلقِمُكَ به.

***

إجابات ناقصة

الإنسانُ تؤرِّقُه دائمًا الإجاباتُ غيرُ المكتملة، والعللُ الناقصةُ، فيقعُ في فخِّ اختلاقِ الأسبابِ التافهةِ والإجاباتِ المغلوطةِ، لدرءِ الألمِ النفسيِّ الحادث جرَّاء النقصان.

الإنسانُ عليه أن يتعلَّمَ احتمالَ التناقضِ والغموضِ، وعدمَ اليقينِ والنقصانِ، بأن يعلمَ أنَّ ذلك من ضروريات الحياة، وأنَّ عليه أن يعيَ ذلك أولًا، وأنَّه ليس وحده، وبالصبرِ والتحملِ والمثابرةِ، سيفهمُ التناقضَ، وسينكشفُ الغموضُ، وسيكتملُ النقصانُ، وسيرى حقيقةَ الأمورِ .

***

أطياف الأفكار

عـادةً ما تتواردُ الأفكارُ على عقولنا كالأطيافِ، كالطيورِ المهاجرةِ، والتي تذهبُ ولا تعودُ، فلا نلقِي لها بالًا، في الأجواء العاصفة العابسة تتجسَّدُ تلك الأفكارُ ككائناتٍ ماديةٍ تملأ أفقَ العقلِ فتغشي عيوننا، ثم تأتي من بعيد لتجرَّ عقولَنا إلى الخنوعِ ورفعِ راية الاستسلام للأحزان.

الخوف يريدُكَ أن تغوصَ في القاع لتموتَ في الظلام.

***

جاءت المحنة

أتت المحنةُ لننامَ، ويوقظُنا فجرٌ جديدٌ.

أتت المحنةُ لتعلِّمُنا أنَّنا إذا كنَّا نعلمُ مَنْ نحن إلى حدٍّ ما، فإنَّنا لا نعلمُ ما يمكنُ أن نصبِحَ عليه.

أتت المحنةُ لتغسلَ السماءُ تلك القلوبَ الموحلةَ الملوَّثة .

أتت المحنةُ لتعتلي الأرواحَ، وتطلبُ المغفرةَ من الرحمن لا من الرزيلة.

أتت المحنةُ لتضعَ الفكرَ الشاحبَ وجنونَ العظماء- الطاووس المفتون- في الأغلال، تحت المراقبة.

أتت المحنةُ لتجعلَ للحياةِ معنًى ومكانًا على الأرض.

***

قصقصة الأجنحة

خلقنا اللهُ أطفالًا نحومُ حول كلِّ الأشياءِ، لا نكلُّ ولا نملُّ، بلا عناءٍ، في يسرٍ، وفي سعادةٍ، نحاولُ فتحَ كلِّ الادراجِ، تذوُّقَ كلِّ الأشياءِ، ارتيادَ كلِّ الأنحاءِ...

نشعرُ أنَّ الكلَّ لنا، وبنا، ومنا، ثم يأتي الإباء بهيهات، وكلا، ولا، فتقصقصُ أجنحتَنا، فلا نقوى على الطيران، وننكمشُ رويدًا رويدًا إلى أن ينتهي بنا المطافُ إلى أن نحومَ حول أنفسِنا.

***

ممالك القلوب

في الخوفِ، علينا أن نُفسِحَ الطريقَ لقلوبنا، نخرجَها من الظلام، إلى ممالك أخرى، تبعدُ الريحَ عن أشرعتنا، تستنزلُ شعاعًا من الإشراقِ على نفوسنا.

ممالكٌ بأسماءٍ تفتحُ الشهيةَ، لها رنينٌ جميلٌ، ممالكٌ من السماءِ تصنعُ وتضعُ الجمالَ، والأمانَ، والراحةَ، والصفاءَ في أرواحنا، تحرِّرُنا من أقفاصنا، كالطائرِ البريِّ نحلِّقُ بعيدًا عن جبال الخوف التي تخنقُ أنفاسنا، إلى الهواء النقي والرائحة الزكية. علينا أن نُغْرِقَ الخوفَ بطوفانٍ من الأحلامِ الضخمةِ.

***

انتحار المنطق

أتى العقلُ خائرَ القوى، في ثيابٍ ممزَّقةٍ، غائرَ العينين، أشعثَ أغبرَ.

ماذا حدث؟

انتحر المنطقُ في بحرِ اليأس!

كيف؟ طارده الجهلُ؟

وأين كنت؟

احتميتُ بثيابِ الجنون!!

***

قوة المعرفة

المصيبةُ أَنَّني أعرفُ أو أفهمُ كلَّ شيءٍ، مقولةٌ متكرِّرةٌ!

المعرفةُ ليست في كلِّ الأحوالِ ذاتُ نفعٍ، إنَّ المعرفةَ كما أنَّها قوةٌ، فقد تبعثُ على الوهنِ والقلقِ.

إنَّ المعرفةَ تتطلَّبُ قدرةً وتحكُّمًا، والقدرةُ ليست بالضرورة قدرةَ الفعلِ أو التأثيرِ، بل أحيانًا قدرةَ الصبرِ، والمثابرةِ، والتحملِ، والانتظارِ.

***

طوفان الخوف

الخوفُ قد ينزعُ الإنسانَ من كلِّ شيءٍ حتى من ذاته. الخوفُ إحساسٌ غامرٌ، وقد يكون كالطوفان، كالإعصار، كالزلزال، يبعثرُ كلَّ شيءٍ فوقه، يجرفُ كلَّ شيءٍ أمامه، في اتجاهٍ واحدٍ لا معرفةَ لنهايته، وقد يدفعنا أحيانًا إلى الخروج عرايا من كلِّ شيءٍ حتى من أنفسنا، من أقنعتنا. الخوفُ فرارٌ من كلِّ شيءٍ.

***

أموات وأحياء

كثيرٌ من البيوتِ والتي يبدو أنَّ فيها زوجين هي في الحقيقة تقومُ على فردٍ واحدٍ والآخرُ ميتٌ، وإن طالَ به العمرُ وعدَّت له السنين، والفكرة أنَّه لم يُقبر أو يُدفن بعد، وإن كان يقومُ بأفعالِ الأحياء، فكم من زوجةٍ لرجلٍ ميتٍ! وكم من زوجٍ لامرأةٍ ميتةٍ! وهذه صورةٌ لعالمٍ من الموتى والأحياء في بوتقةٍ واحدةٍ.

***

إنكار وتبرير

الكثيرُ منا عندما تنتكسُ به الأحوالُ، أو تتقلَّبُ به الأمورُ، ويجدِبُ عقلُه أو تبورُ نفسُه، أو يصبحُ واقعُه مزريًا ولا يجدُ سبيلًا إلى التعاملِ مع ذلك، لا يجدُ إلَّا الإنكارَ أو التبريرَ- الواعي أو اللاوعي- لوضعه البائس، ثم لا يرى سوى أن يهيلَ عليه الترابَ، أو يغيِّرَ اليافطة، أو يخفيه بالمساحيق البرَّاقةِ الزائفةِ توهُّمًا وظنًّا منه أنَّ ذلك سيغيرُ حقيقةَ الأشياءِ، ولكنَّ العفنَ لابد أن تفوحَ رائحته، والسقوط سيُظهِرُ وهنَ البناءِ، ولا يكونُ حينها إلَّا الزمانُ هو القادرُ على كشفِ الزيفِ.

***

نظرات الحبيب

نظراتُ الحبيبِ الحانية، كشعاعِ الشمسِ الذي ينسابُ إلى دمائكَ، ينتشرُ في كلِّ زاويةٍ من زواياكَ، تلملمُ أشجانكَ المبعثرةَ الباردةَ، توقظُ مشاعرَ البهجةِ المنكمشةِ من برودة الحياة، تُخرِجُ أحلامكَ من مكمنها، من بياتها الشتوي.

تعلنُ عن بداية الربيع، عن نموِ أوراقِ المحبةِ من جديد على أغصانِ الجمالِ داخلكَ، ولتصدحَ عليها أمنياتُكَ، وليغمركَ الدفءُ، والطمأنينةُ، والسكينةُ.

***

خريطة للحياة

في طريقِ الحياةِ الوعر المحفوفِ بالشراك، والمسكونِ بالأشباحِ والذئابِ، والمُلَغَّمِ بالقراصنةِ، كان على الإنسانِ أن يتزوَّدَ بخريطةٍ للحياةِ، تجيبُ على الأسئلة وتبرزُ معالمَ الحياةِ، تحملُ المعاني وتحلُّ له الألغازَ، تكشفُ وتضيءُ، ولم يكن يلطِّفُ من ذلك سوى الدينِ، والفنِّ، والحبِّ.

***

أشجان ونفوس

الأشجانُ تلجِمُ اللسانَ، وتـؤرِّقُ الوجدان، ولكنَّها كأوراق الأشجار لا تدوم، ولا بد لها من أن تذبُلَ وتسقطَ، فدورةُ الزمانِ تضمِّدُ وترمِّمُ الجراحَ، وتعاقبُ الأحداثِ يغيِّرُ الأحوالَ.

النفوسُ كالفصول يعتريها ما يعتريها من ربيعٍ مشرقٍ، جميلٍ بنسماته الحانيةِ، وصيفٍ بنهاره الحارقِ وليله الحالمِ، وخريفٍ نتعرَّى فيه لنتجدَّدَ، ولا تخلو أيضًا من شتاءٍ قارسٍ قاسٍ.

***

طريق الرضا

هل الرضا محمود؟! ربَّما يكونُ كذلك في كثيرٍ من الأمورِ، ولكن قد يكون حيلةً نفسيَّةً لسلوكِ طريقٍ آخر تجنُّبًا لطريقِ اليأسِ، بأن يكون ضرورةً، أو حيلةً نفسيَّةً لعدمِ الولوجِ، أو التوغلِ في طريق اليأس.

طريقُ الرضا يجبُ أن يُسلكَ عن وعيٍ واختيارٍ لا عن قهرٍ واجبارٍ، حتي يتحقَّقَ فيه السلامةُ النفسيةُ.

***

عيون البشر

ليس في الوجود عيونٌ تضاهي عيونَ البشرِ، ففي العيونِ كلُّ الحياةِ والموتِ، كلُّ السماءِ والأرضِ، تبدو فيها كلُّ الإسرارِ، كلُّ الألوانِ والأصباغِ، كلُّ المآسي والأوجاعِ، كلُّ الأفراحِ والأتراحِ، كلُّ الخيانةِ والخداعِ، كلُّ الوحشةِ والقسوةِ، كلُّ الجرأةِ والإقدامِ، كلُّ الفراقِ والوداعِ، كلُّ التواري والإخفاءِ، كلُّ الحبِّ والإشباعِ، كلُّ اللهفةِ والاشتهاءِ، كلُّ النكرانِ، كلُّ الدهشةِ.

***

أجنحة الذكريات

الذكرياتُ المغموسةُ بالألمِ، أو الحسرةِ والندمِ، أو المكتسيةُ بالحزن، وكذلك الذكريات المتعطِّرة بالحبِّ، والبهجةِ، والسرورِ، هي التي تجدُ طريقَها للخروجِ، لأنَّها محمولةٌ على أجنحةِ العواطفِ الملتهبةِ، ذاتِ الأدخنة أو الروائح العطرة، وهي التي تجدُ طريقَها سريعًا إلى العيون والآذان، والأنوف، والأبدان، فتسكن فيها مراتٍ ومراتٍ. أمَّا الذكرياتُ بلا عواطفٍ فهي تظلُّ جامدةً، خامدةً، ثقيلةً، في القاع تعبِّرُ عن الوجود ولا تعبِّرُ عن الحياة.

***

التنبؤِ بالعواصف

ليس كلٌّ منا له القدرةُ على التنبؤِ بالعواصف والزوابع، وليس كلٌّ منا لديه تلك القرون الاستشعارية لتحسُّسِ الأخطار، فليس لدينا عيونُ الميكروسكوب، وآذانُ الكلابِ ولا أنوفُها، كما ليس لنا أجنحةُ الطيورِ، ولا زعانفُ الأسماك، ومع ذلك يأبى الإنسانُ إلَّا أن يقهرَ ضعفَه، ويُخْضِعَ قلقَه، ويعلو بنفسه، يركضَ وسطَ العواصفِ، ويقفَ في مهبِ الريحِ.

***

فصول الكتاب

الإنسانُ كتابٌ تُكتبُ فصولُه الأولى رغمًا عنه، ودون إرادته، وقد تقسو عليه الحياةُ في بدايتها فتنقشُ رسومَها على محياه قبل أن يشتدَّ ساعدُه، ويقوى على تسطيرِ صفحاته وكتابةِ فصوله، والتي ربَّما عند البعضِ ما هي إلَّا تعديلٌ أو تغييرٌ لا يُذكرُ في صفحاته الأولى، وربِّما يكونُ في الحقيقيةِ فصلُه الأولُ هو فصلَه الأخيرَ، ومن البشرِ من لا يكونون قادرين إلَّا على كتابةِ الفصلِ الأخيرِ.

***

الجراثيم أنواع

إنَّ الجراثيمَ في الغالبِ لا تُري بالعين المجردة، ولكن تُعرفُ من آثارها الضارة على الجسم. هناك جراثيمٌ من أنواعٍ أخرى، أشدُّ فتكًا وأكثرَ إيلامًا، إنَّها الجراثيمُ التي تصيبُ النفسَ والروحَ، ومن أشدَّها فتكًا هي جرثومةُ اليأسِ، حينما تتمكَّنُ من النفوسِ وتتوغَّل في الأرواحِ كالحشرةِ المميتةِ التي تفسدُ رحيقَ الروحِ، وتبثُّ السُّمَّ في أنحاء الروحِ، والنفسِ، والبدنِ.

***

ظل الذكريات

الذكرياتُ مهما عظُمت، فهي في النهاية الظلُّ الذي يتبعُكَ، والذي قد تأنَسُ به، وتركنُ إليه، وتحتمي به من الشمسِ الحارقةِ، وتنعمُ تحت سمائها بالمروج اليانعة، وقد تكون البركانَ المستعرَ الذي يقذفُكَ بحممِه إلى الصحراء القاحلة.

الذكرياتُ ليست حقيقتَكَ الكاملةَ، هي الماضي أمَّا أنتَ الحقيقي فهو الآن، الآن الذي يريدُكَ أن تبني ظلالَه الوارفةَ المثمرةَ.

***

بكاء الرجال

يبكي الرجالُ عندما تصبحُ الحياةُ بلا ظلٍّ لا تحملُ ذكريات، وبلا أفقٍ لا تحملُ آمالًا.

يبكي الرجالُ عندما تجفُّ الأقداحُ، وتسافرُ الأرواحُ إلى أفقِ النسيان.

يبكي الرجالُ لأنَّ الأشياءَ لم تعد كما كانت، ولن تكونَ كما ينبغي.

يبكي الرجالُ عندما تصبحُ الصورُ باهتةً، والألحانُ رتيبةً، والأصواتُ غريبةً، والموتُ يسكنُ الأركانِ .

***

حشيش وخمور

كثيرًا ما تعبثُ به الأفكارُ، وتؤلمُه العواطفُ، فيحاولُ أن يُغرِقَها في الخمورِ، أو يحرِقَها مع أنفاسِ الحشيشِ، أو يخمدَها مع المنومات، أو يتقيأَها خيالًا مع المهلوسات.

يتخلَّصُ من صديقٍ مؤلمٍ، ليصاحبَ ألدَّ الأعداء، ليصاحب الإدمان الذي ينبشُ بمخالبِه في أعمقِ أعماقه، يمحو صورةَ الإنسانِ، ويرسمُ صورةَ الوحشِ الجائعِ في الفلاةِ، الذي لا يهدأُ حتي يدفنَه في كهفِ الضياعِ والنسيانِ.

***

طيور الربيع

أتى الربيعُ فأيقظَ الطيورَ التي هجرت أعشاشَها لتصدحَ، وتطربَ مُؤذِنَة بقدومِه فوق الأشجارِ العاريةِ، التي أيقظتها قطراتُ الندى لتكشفَ عن زهورِها الحُبلَى بها منذ الخريف والشتاء. وهكذا أتى الربيعُ ببهجتِه، ورونقِه، وزهوِه، وبهائِه، بأوراقِه، وأزهارِه، وثمارِه، بطيورِه، ونسماتِه، وبسماتِه.

***

رباطة جأش

عندما يصلُ إلى مسامعِكَ أنَّ هناك أسدًا يفغرُ فاهُ، يكشفُ عن مخالبِه ويتحفَّزُ للانقضاضِ، أو أن بركانًا على وشكِّ الانفجار، أو أنَّ وباءً على الأبواب، وأنَّه لا مناصَ ولا مفرَّ!

حينها يتملَّكُ الفزعُ القلبَ، ويصبحُ الرعبُ كالريحِ العاتيةِ، والطوفانِ الجامحِ الذي يعرِّي الإنسانَ من التفكيرِ ويسلبُ قدرتَه على تبيان وجه عدوِّه الحقيقي. والذي يضعُ الإنسانَ حينها في مصافِ العظماءِ هو رباطةُ الجأشِ التي تجعله يملكُ مفاتيحَ التحايلِ.

***

هل نرضى؟

من أجمل ما يتمناه الإنسانُ أن يحظى ببيتٍ جميلٍ فسيحٍ، له شرفةٌ واسعةٌ، وحديقةٌ مترامية الأطراف تصطفُّ على جوانبها الأشجارُ الزاهرةُ والمثمرةُ، تنبعثُ منها الروائحُ الزكيةُ، وتغمرُه الشمسُ من كلِّ جانبٍ، ويجدُ ضياءَ القمرِ له سبيلًا، وله منفذًا على بحيرة وممشى يسقِطُه على شاطئٍ جميلٍ فيه فراشٍ وثيرٍ وأثاثٍ أنيقٍ. ثم ماذا؟ هل يرضى؟

***

خروج الوحش

أحيانًا يكونُ كرهُه لشخصٍ ما، ليس بسببِ أنَّه أغضبه، بل لأنَّه أخرجَ الجزءَ الذي كان لا يحبُّ أن يراه في نفسه، أخرجَ أسوأ ما فيه، أخرجَ الوحشَ الرابضَ بعيدًا في داخله، والذي عرفَ طريقَ الفكاكِ والانفلاتِ، وقد لا يعودُ إلى قفصِه مرَّةً أخرى، فيخسرَ بذلك الهدوء، والراحة، والسكينة.

***

الفراغ الجميل

لا يعانون الفراغَ، هم الفراغُ ذاتُه، الوجوهُ الفارغةُ نفسُها، يرددون الكلماتِ نفسَها، ويجترون الذكرياتِ نفسَها، ويسكبون المشاعرَ نفسَها، ويقومون بالأفعالِ نفسِها ذاتِ النغمة الواحدة والإيقاعِ الواحد، تجمَّدوا في ثلاجةِ الملل، والرتابةِ، والضجرِ الحياتية، ولا يشتكون أبدًا. الفراغُ الجميلُ يمتِّعُهم ويشبعُ رغباتهم.

***

الخادمة والسيدة

دخلت الخادمةُ على سيدتها، وكانت الخادمةُ هذه المرة في قمة انتعاشها ونشوتها، ترتسمُ تحت شفتيها ابتسامةٌ ساخرةٌ ويتوارى بين جفونها – في عيونها– بقايا من ضحكةٍ خبيثةٍ، بعدما تنصَّتَت لشجارِ بين الزوجين. وعندما أبصرت سيدتُها ذلك أمرتها على الفور أن تأتي بحذائِها بعد أن تنظِّفَه جيدًا من التراب.

***

معنى الحماقة

الإنسانُ يسعى أحيانًا ليبدو أحمقًا، مُغَيَّبًا، عابثًا، ولاهيًا، يريدُ أن يحطِّمَ إطارَ الوقارِ المزيَّفِ، وينزعُ قناعَه المُخادِعُ، ويعلنُ عن أفكارِه المكبوتةِ، ورغباتِه المجنونةِ...

يريدُ أن يتطهَّرَ، يريدُ نفسَه أو بعضًا منها، يريدُ أن يعلنَ عن حقيقتِه، ولكنَّه أيضًا يريدُ أن يجعلَ لحمقِه معنًى، فينغمس في السكر.

***

أغبياء وأبطال

الحروبُ لا يثيرُها إلَّا الأغبياءُ أو ما يسمونهم الزعماءُ.

ويا للعجبِ يُساقُ لها الأبطالُ، وهم الذين يموتون فيها قبل أن يعرفوا لها نهايةً، ويكون النصرُ فيها للجبناء.

الحرب يراها الزعماءُ ضرورةً، وتحت مسمى الضرورة يُقتَلُ النساءُ والأطفالُ، وتُنتَهكُ الطبيعةُ، وتتلوَّثُ الحياةُ، وتنمو في النفوسِ الأمراضُ، ويكتسبُ الزعيمُ لقبًا، أمَّا أطفالُكَ وبقرتُكَ، فلا يعبأُ بهم أحدٌ.

***

حكمة الخوف

إنَّ الخوفَ الذي تحاولُ أن تدفنَه في نفسِكَ، ما هو في الحقيقةِ إلَّا البذرةُ التي تنبتُ شجرةَ الأحزان. والحزنُ الذي تبتلعُه، ما هو إلَّا الكوابيسُ التي تؤرِّقُ منامَكَ، وتنغِّصُ نهارَكَ.

الخوفُ والحزنُ مشاعرٌ إنسانية، أوجدها اللهُ لتجعلَ الإنسانَ يأخذُ خطوةً للخلف، ويستبصرُ الأمورَ، ويراجعُ خريطةَ الحياةِ، ويستلهمُ منهما دروبًا إلى السماء، إلى الله .

***

محنة الوباء

ستمرُّ بلا شكٍّ هذه المحنة، ولكنَّ الشكَّ في أن تنتصرَ الإنسانيةُ، والتي لابد لها أن تنتصرَ.

ولن تنجوَ، ولن تنتصرَ الإنسانيةُ اليوم بالعزفِ على مزمارِ هذا الوباء، وتقتاتُ الهواءَ مرةً أخرى، وتساقُ بمحض إرادتها إلى قيودٍ تحت أسماءٍ من نوعٍ آخر، تُقامُ من أجلها التماثيلُ، وتُوزَّعُ تحت رايتها الأوسمةُ والنياشينُ.

***

غيبِ الموتِ

ربَّما يكونُ أكثر ما يؤلمُ الإنسانَ – في الحقيقة – ليس أنَّه سيموتُ، ولكن لماذا يموتُ بهذه الطريقة؟

الإنسانُ الذي يفكِّرُ بهذه الطريقةِ يستنشقُ الغمَّ والهمَّ مع كلِّ نفسٍ يتنفسُه، أمَّا الذي لا يفكرُ بهذه الطريقة، فهو الذي يستبصرُ بالحكمةِ الإلهيةِ في غيبِ الموتِ من حيث مكانه وزمانه.

الايمانُ بالله الواحدِ ضرورةٌ.

***

القلق الفتَّاك

القلقُ أشدُّ فتكًا للإنسانِ من أيِّ شيءٍ آخر، لأنَّه يأتي من داخله، يقفُ له بالمرصاد، يدعوه لانتظارِ حتفِه، ويعطيه إحساسًا بالمرارةِ أنَّ الخيانةَ تأتي من أقربِ مكانٍ يتصوَّرُه، من نفسه، من أفكاره، التي تطلقُ مشاعرَ الخوفِ من مكامنها فتنزعُ الإنسانَ من سباته، وتجعله يدورُ حول نفسِه.

***

حديقة العلماء

يضعُ يديه تحت ذقنِه، يعضعضُ شفتيه، يرخي أذنيه، يصمتُ ويهمسُ بعينيه، يفركُ يديه، ينحني بجذعه، يضمُّ ركبتيه. وكلُّ ذلك خوفًا من أن تنزلقَ المعارفُ من داخل الجمجمةِ التي يحملُها بين كتفيه.

مرحبًا بكَ في حديقةِ العلماءِ.

***

تأملات في سطور

- كان مستغرقًا في التفكير، ثم بدأَ يحكُّ رأسَه، يضعُ إصبعَه في أنفِه، ثم يضعُ رجليه فوق المنضدةِ، ليقدِّمَ إجاباتٍ عميقةً مقنعةً لكلِّ الأسئلةِ.

عن «كرونا» أتحدَّثُ.

- كم من الأفكارِ العظيمةِ ماتت ودُفنتْ داخلَ عظامِ الجمجمةِ ولم ترَ نورَ الحياة! وكم منها طُوِيَ في الأوراق! وكم من الجدرانِ أخفى الكثيرَا! والكثيرُ يختفي خلف الأملِ، والسرابِ، والأوهامِ.

- الإنسانُ قدِّيسٌ بإشراقتِه الجميلةِ، وطلعتِه البهيَّةِ، ووجهِه المنبسطِ، وقسماتِه المتناسقةِ، بنبراتِ صوتِه المؤنسِ، وابتسامتِه المتألِّقةِ، وشعاعِ عينيه الدافئِ، وسكونِه الحالمِ، وهدوئِه الآمنِ، وحركتِه الرزينةِ.

- يبدأُ الإنسانُ في النصفِ الأولِ من حياتِه في نسجِ الأقنعةِ الزائفةِ، ويبدأُ النصف الآخر من حياته في معرفةِ زيفِها، ومحاولةِ التنصُّلِ منها، ونزعِها الواحد بعد الآخر، وقد تسعفُه أو لا تسعفُه الأيامُ.

- أيُّها الكسلُ! أيُّها الرفيقُ الحبيبُ! أين شاطئُكَ المشمسُ الجميلُ، ورمالُكَ الدافئةُ، ونسماتُكَ الرقيقةُ، وسكونُكَ الحاني؟! أيُّها الكسل أنا متعبٌ! وأريدُ أن التحفَ بردائِكَ، وأنامَ، وكفى!

- تدعوكَ الأديانُ، في جوهرها، لتسبحَ في ملكوتِ السمواتِ والأرضِ، بالنظرِ والتفكُّرِ والعملِ. ففي كلِّ زاويةٍ من زوايا الكونِ حكايةٌ أنتَ فيها، وتحتاجُ فقط أن تصغِي إليها.

- من الناسِ مَنْ يقضي حياتَه في مجابهةِ الأشباحِ والانتقامِ من الموتى. مَنْ لم يستطعْ مجابهةَ الأحياءِ، كيف له أن يواجهَ الموتى؟!

- لا يمكنُ- بأيِّ حالٍ من الأحوالِ- أن تتحطَّمَ أسوارُ بيتٍ لبناتُه من الاهتمام والاحترام، وبعيدًا عن النقد- الانتقاد- الهدَّام. الخطوةُ الأولى: السكنُ.

- تاريخُ الميلادِ أصبحَ حيلةً لوأدِ الكثيرِ من النَّاسِ.
- الوأدُ = دفنُهم أحياء.

- النعيمُ والجحيمُ يعرفهما الإنسانُ وحده، حيث يبصرهما في كلِّ خليةٍ من خلايا روحـه. وحيثما يكونا يكون، فهو يزرعُ بذورَهما ويجني ثمارهما.

- مهما تعاظم قدرُكَ فلن تصبحَ إلَّا كلمةً من سطرٍ، جملةً من مقالةٍ، صفحةً من كتابٍ، حلقةً من سلسلةٍ، ورقـةً من شجرةٍ، فلماذا الكبرُ؟!

- الثرثرةُ هي رأسُ مالِ فقراءِ الفكرِ.

- نحن نغيِّرُ أثوابَنا بقدرِ أحجامِ بطونِنا (كُرُوشِنا).

- أكثرُ ما يكدِّرُ صفوَ الحياةِ أن تنامَ، وتعرفَ أنَّكَ ستصحو لترى وجوهًا كئيبةً.

- من البشرِ من لا تقتصرُ حياتُه إلَّا على الملذاتِ المُغتصَبةِ، والمتعِ المُجرَّمةِ، متسلِّحًا بكتالوجٍ، ومخطوطاتٍ، وخرائطٍ من الخبثِ والاحتيالِ، وبقاموسٍ من المصطلحاتِ الرخيصةِ.

- من البشرِ مَنْ لم يصنعوا ماضٍ يفكرون فيه، وليس لهم مستقبلٌ يأملون فيه، حتي لحظاتهم الحاضرةِ ليست ملكهم، وتجدهم سعداءَ ويقهقهون حتي الثمالةِ بما هم فيه. مرحبًا بكَ مرةً ثانيةً في الحديقة .

- أنتِ أرهقتِ خيالي فأصبحَ عاجزًا يائسًا في أن يرسمَ ملامحكِ ويقتفي أثرَ البسمة الساحرة الغامرة، وكيف لخيالي أن يرسمَها؟!. إنَّها كالطيف الغامر الذي يذيبُ الروحَ ويجعلُها ترتفعُ وترتفعُ في اللانهائي من العوالم السحرية.

- إنَّ أعظمَ مصيبةٍ هي افتقادُ الإنسان الاحترامِ لنفسِه، وقد يبدأُ قطرةً قطرةً، قطرةٌ لا يُلْقِي لها بالًا، أو مهوِّنًا من أمرها، حتى يأتي على آخر قطرةٍ، فيشعرُ بجفافِ نفسِه، ومن ثَمَّ صداها.

- لا تجلسْ أبـدًا على مائدةِ الكراهيةِ المستديرةِ، فحتمًا ستكونُ يومًا ما دِيكًا بالمكسرات!

- المرأةُ نبتةٌ صغيرةٌ تحلمُ دائمًا بعشٍّها الأبديِّ، فهي وإن كانت تتعمَّقُ بجذورها في أرضِ أهلِها، فـإنَّ بصرَها يتعلَّقُ بالعشِّ الذي ستبنيه فوق أغصانِها.

- في الزواج أو العلاقات عمومًا، قد يكون أحيانًا هناك ضرورةٌ لفتحِ الجروحِ القديمةِ والذكرياتِ المؤلمةِ، والـمُـرَّةِ، لإخـراجِ التقيُّحاتِ العفنةِ، والدماءِ الفاسـدةِ، ولبعثِ حياةٍ جديدةٍ.

- لماذا يأخذُ كلَّ هذه الأمور على محملِ الجدِّ، إذا كان عندهم كسقطِ متاعٍ، ومثل الحشرةِ لا يساوي شيئًا. لماذا كل هذا العذاب ؟!

- كثيرٌ من الصداقات ليست صداقاتٍ بالمعني الحقيقي، بل في كثيرٍ من الأحيان، هي إعلانٌ عن هدنةٍ لحروبٍ قادمةٍ.

- إذا كانت الأمـمُ تحتاجُ إلـى قوانينَ، والإنسانيةُ إلى ضمائرَ، والإنسانُ إلى روحٍ؛ فإنَّ الكلَّ يحتاجُ إلى الله.

- الحبُّ والشجرةُ متماثلان، بذرةٌ لا نراها. تنمو وتعلو إلى عوالمِ الطُّهرِ والنقاءِ، إلى السماء. وتغوصُ لتمتدَّ جذورُها في صميمِ الأعماقِ، تنهلُ من كنوزِ الخيالِ والجمالِ.

- ما بين الرضا والقنوط، اليأس، شعرةٌ في قلوبِ العارفين.

- الإنسانُ أعظمُ قيمةً، وأعلى شأنًا، وأكثرُ جمالًا مما خُلق له.

- نحنُ نعيشُ عصرَ العبوديَّةِ في أزهى صورِها، يتزيَّنُ أصحابَها بالبدلِ المزركشةِ المبهجةِ، وأعلى الشهادات. يتجوَّلُ فيها العبيدُ بسيارتهم الفخمة، في السجنِ الكبيرِ شطر أربابٍ متفرقين.

- المهنُ لا تدومُ والظروفُ تتغيَّرُ، والحياةُ لا تنتظرُ وقطارُها لا يتوقَّفُ، وعلى الإنسانِ أن يعيَ تلك الحقائقَ، وإلَّا فاته القطارُ.

- أكبرُ تهديدٍ لوجود الإنسان هو الصدق، والعدل، والحرية!!

- وجهةُ نظرٍ تأمليَّةٍ (تحتاج إلى تفصيلٍ، ولكن تركتُها لتأملكم).

- التعيسُ بحقٍّ مَنْ ليس له في الأرضِ مكانٌ، والأتعسُ مَنْ ليس له في السماءِ مكانٌ، وأتعسُ التعيسين الحيرانُ بلا هـدًى، المترنِّحُ بلا سبيلٍ، تعصفُ به الأهواءِ، وتتلقَّفُه الصفعاتُ.

- في يد الموتى يكونُ الذهبُ حفنةً من ترابٍ.

- قال له: لا تبتئس! المجانين على ما يرام، بعيدًا عن «المجانين في نعيم» التي نتندَّرُ بها.

- من سـوءِ حـظِ بعضِ البشرِ أن يُولدَ طيبًا نقيًّا، على مرمى الذئاب، أو في بحرِ الحيتان، أو يكون نبتةً بين جدران أسمنتية.

- الحبُّ العميقُ هو الأرضُ الصلبةُ التي يقفُ عليها المتحابون عند اشتدادِ الأزمات.

- اقتربَ منها، لا ليتقرَّبَ منها، بل لأنَّه يشتهيها، ثم عشقها، لا لأنَّه يشتهيها، بل ليضيعَ.

- مِن البشرِ مَنْ لا يخرجُ من شرنقةِ الطفولةِ، ويظلُّ طفلًا حتى الثمانين، فلا يجيدُ غير اللعبِ بالدُّمَى وأكلِ الحلوى.

- هناك أناسٌ لا تقبلُ المزاحمةَ حتي في مرضِ النفاقِ، الذين يبدعون في أدواته ووسائل التعبير عنه.

- لا يزالُ الخوفُ يحدِّدُ الكثيرَ من الدروب التي نسلكُها، وربَّما يدفعُنا في طريقٍ ما أو يوقفُنا فإذا لم ننتبه له، فقد يفقدُنا إرادتنا، ونصبحُ مطيَّةً مغمضةَ العينين، نلهثُ وراءَه خوفًا منه، خوفًا من الخوف.

- عند الخوفِ يصدِّقُ الإنسانُ كلَّ شيءٍ، فيفتحَ الأبــوابَ للحيوانات الكاسرةِ، والطيورِ الجارحةِ فتحطِّمُ آمالَه، وتسرقُ أحلامَه، وتتركُه منهكَ القوى، تعصفُ به الريحُ في مكانٍ سحيق.

- كثيرًا من البشرِ لا تنبتُ في مزارعِهم إلَّا الأكاذيبُ من كلِّ شكلٍ ولونٍ.

- شعرَ فجأة أن الستارةَ تمزَّقت تمزيقًا، كشفت عن هاويةٍ نحن نخفيها، بكلماتٍ مطمئنةٍ مهدئةٍ.

- في غمرةِ الحزنِ لا نستدعي فقط ذكرياتنا الأليمة، أو مواقفنا المهينة، أو أفعالنا المشينة، أو جروحنا العميقة، بل أحيانًا نستدعي وجوهًا، نتحدَّثُ إليها، نتوسَّلُ إليها، أو نسترحمها.

- أحيانًا وفي حالاتِ الشِّدَّةِ تعلو أصواتُنا الداخلية، تتجاوزُ الضوضاءَ المحيطة. حيث يناطحُ تلاطمُ أمـواجِ العواطفِ الصخورَ الفكريةِ .

- إنَّ الإنسانَ يفكرُ كثيرًا حتى يخافَ من أفكاره، ثم يقلقُ منها، ويقلقُ كثيرًا حتى يقلقَ من قلقِه، ثم يتملَّكُه الخوفُ من قلقِه وبواعثِه وعواقبِه، ويخافُ، حتى يخافَ من خوفِه، ثم يتملَّكُه الحزنُ على ما صارت له الأمورُ، ويحزنُ حتى يحزنَ من حزنِه.

- إنَّ الحلمَ الذي نبتَ وتعمَّقَ في عقولنا، وأصبح مشحونًا بعواطفنا المتَّقدة، يظلُّ محفورًا مغروسًا في أعماقنا، وإن توارى أو غمرته وقائعُ الأشياءِ، فإن لم يتحقَّق أو بُتِرَ، فإنَّنا نظلُّ نشعرُ بوجودِه، ويظلُّ يؤلمُنا حتى وهو غائبٌ، كالعضو من أجسادنا الذي نظلُّ نشعرُ به حتي بعد بتره.

- الخيالُ محمولٌ على بساط العواطفِ، يسبحُ بسهولةٍ في بحورها، أو يتدثَّرُ بغطائها ويأخذُ منها الدفءَ والإحساسَ بالراحةِ والأمانِ، وينسجُ منها لباسَه المريحَ وفراشَه الوثيرَ، وقد يأخذُ منها نيرانًا متأججةً وسياطًا لاسعةً تلهِبُ الظهرَ وتؤجِّجُ الصدرَ.

- إنَّ بحورَ الـدمـوعِ العذبةِ، والمالحةِ، والحارةِ، والباردةِ، والساخنةِ، والمتدفِّقةِ، والمتجمدةِ، والمنسابةِ، والمترقرقةِ، والزائفةِ، والكاذبةِ، والحقيقيةِ، ووووو... تدعونا للوقوفِ على شطآنها، نتحسَّسُ الأعماقَ التي ذرفتها، وطبيعةَ الرياحِ التي أرسلتها.

- هل الرضا محمودٌ؟! ربَّما يكونُ كذلك في كثيرٍ من الأمـورِ، ولكن قد يكون حيلةً نفسيَّةً لسلوكِ طريقٍ آخر تجنُّبًا لطريقِ اليأسِ، بأن يكون ضرورةً، أو حيلةً نفسيَّةً لعدمِ الولوجِ، أو التوغلِ في طريق اليأس.

- إنَّ الحلمَ الذي نبتَ وتعمَّقَ في عقولنا، وأصبح مشحونًا بعواطفنا المتَّقدة، يظلُّ محفورًا مغروسًا في أعماقنا، وإن توارى أو غمرته وقائعُ الأشياءِ، فإن لم يتحقَّق أو بُتِرَ، فإنَّنا نظلُّ نشعرُ بوجودِه، ويظلُّ يؤلمُنا حتى وهو غائبٌ، كالعضو من أجسادنا الذي نظلُّ نشعرُ به حتي بعد بتره.

- الخيالُ محمولٌ على بساط العواطفِ، يسبحُ بسهولةٍ في بحورها، أو يتدثَّرُ بغطائها ويأخذُ منها الدفءَ والإحساسَ بالراحةِ والأمانِ، وينسجُ منها لباسَه المريحَ وفراشَه الوثيرَ، وقد يأخذُ منها نيرانًا متأججةً وسياطًا لاسعةً تلهِبُ الظهرَ وتؤجِّجُ الصدرَ.

- إنَّ بحورَ الدموعِ العذبةِ، والمالحةِ، والحارةِ، والباردةِ، والساخنةِ، والمتدفِّقةِ، والمتجمدةِ، والمنسابةِ، والمترقرقةِ، والزائفةِ، والكاذبةِ، والحقيقيةِ، ووووو... تدعونا للوقوفِ على شطآنها، نتحسَّسُ الأعماقَ التي ذرفتها، وطبيعةَ الرياحِ التي أرسلتها.

- ليس مكانُ الميلادِ دليلًا على وحدةِ الهدفِ، ولا دليلًا على أنَّنا سنسيرُ في الطريق نفسه، أو أنَّنا سننتهجُ المنهج نفسه، ولكن يطلبُ من البعضِ عبر الأقدارِ أن يسلكوا طريقًا مليئًا بالأزهار، وآخرون طريقًا مليئًا بالأشواك ليلتقوا في النهاية في المصير نفسه.

- لا يعلو ولا يكون الضجيجُ والصخبُ والـغـوغـائـيـةُ إلَّا مـن الـكـومـبـارس والهامشيِّين. فهم ظواهرٌ صوتيةٌ، آلاتٌ نحاسيةٌ، مزاميرُ تعزفُ النشازَ، وطبولٌ تُدمِي الآذان، أمَّا أصحابُ الأدوارِ الرئيسةِ في الحياةِ فهم لا يتكلمون، عجبي!

- في علمِ النفسِ يرتبطُ الاكتئابُ في كثيرٍ من الأحيانِ بالفقدِ بصورِه المختلفةِ (المعنوية والـمـاديـة)، ويرتبطُ الفقدُ والاكتئابُ باستدعاء الذاكرة السلبية، وما تحمله من ذكرياتٍ مؤلمةٍ، ومع بعض الخيال، والتوهُّم، والتوقُّع، يتم عمل توليفة لليأس، والشعور بالعجز.

- في الإنسانِ وحشٌ كاسرٌ، وشيطانٌ ماكرٌ، وقد يتواريان خلفَ حَمَلٍ وديعٍ، أو ملاكٍ رقيقٍ. وبينهما غلالة وستارة رقيقة يصنعُها الكبرياءُ، فإن خُدِشَتْ تلك القشرةُ، أو هُتِكَتْ تلك الستارةُ، أيقظت ذلك الوحشَ، وأطلقت ذلك الشيطان.

- إنَّ القلقَ هو الذي يجعلُني لا أنساكَ، ويجعلُ قلبي يلهجُ بذكركَ وينامُ على ذكراكَ، والحزنُ يحيي ذكراكَ بداخلي، وينعشُ الخوالي من الأيام، ويدفعُ بالنسيمِ ليلطِّفَ من لوعةِ الفراق. إنَّ القلقَ والحزنَ يجعلاني أشعرُ بوجودكَ، هما مفزعان، ولكن بغيرهما أفتقدُ متعةَ وجودِكَ.

- ستخبرُنا الأيامُ القادمةُ، بالبرهان القاطعِ، وعلي وجه اليقين، أنَّنا كُنَّا نقتاتُ طعامًا مسمومًا على مائدةِ الرأسمالية، مرشوشًا عليه بهاراتٌ مصطنعةٌ ومضلِّلةٌ من حقوقِ الإنسانِ ومصيرِ الشعوبِ.

- كان إنسانًا، ثم أراد أن يصبحَ شيطانًا، وها هو الآن في الجحيم .

- لكلٍّ مِنَّا كلمةُ مرورٍ تُفتحُ بها القلوبُ.

- قد يكونُ لصدى الصمتِ دويٌّ أقوى من الرعدِ، وحـرارةٌ في النفوس أقوى من اللهبِ.

- عندما تعلو عقولَنا الغيومُ الداكنةُ السوداءُ وتتناثرُ في ثناياه، يصبحُ العقلُ مكبلًا منهوكَ القوي، واهنَ العزمِ ثقيلًا، قليلَ الحيلةِ عاجزًا، فاقدَ الصوابِ مهتزًّا أو مهترئًا، وهنا تنبشُ في جوانبه الغرائزُ الهدَّامةُ الكامنةُ، المتأهِّبةُ للفتكِ به كالذئاب التي تنتظرُ غفلةَ الراعي للهجومِ والافتراسِ.

- من أعظمِ وأروعِ الحواسِ حاسةُ الشَّمِّ! فهي تنثرُ روعتَها، وتزيِّنُ أيضًا الحواسَ الأخـرى، فعندما تـرى شيئًا أو مكانًا عزيزًا، تدفعُكَ الذكرياتُ لتتنفَّسَ عبقَه من جديد، وكأنَّه وليدُ اللحظة، وقد تشمُّ رائحةَ الأصواتِ، وتتنفَّسُ صوتَ الحبيبِ عطرًا يلهِبُ المشاعرَ ويؤجِّجُ الذكريات.

- إنَّ ما ينشدُه ويتلذَّذُ به القساةُ، وغلاظُ القلوبِ، وأشرارُ النَّاسِ، والطُّغَاةُ هو إيلامُ الأرواحِ والنُّفوسِ. فهم يرون أنَّ إيلامَ الأجسادِ لا قيمةَ له، وأمرٌ تافهٌ، ويدركون من أرواحِهم التائهةِ والمبعثرةِ أن ذلك هو الجحيمُ بعينه.

- لماذا الخوفُ إذا لم يكن هناك أمل؟! في الخوف أملٌ.
- الجحيمُ هم الناسُ الآخــرون، جحيمٌ لا غنى عنه. الإنسان محكوم عليه بالحرية. الحريةُ قيدٌ لابد منه-

(سارتر).

المحتويات

الإهداء 5

السيد «كرونا» 7

شعاع الأمل 9

تيار الحياة 10

تعذيب الذات 12

لا تيأس 13

خلوة هادئة 15

المجد الحقيقي 16

مخلوق عجيب 17

القمر والبشر 18

وزنك الحقيقي 19

ربيع... وخريف 21

حديقة حيوان 22

توحش بشري 23

إله... وشيطان 24

ألحان الموتى 25
جوهر الذاكرة 27
الخوف المخفي 28
ذهول العقل 29
مستنقعات وقاذورات 30
نعمة الخيال 31
تملُّك زوجي 32
تذويب الهموم 33
عطر الوجود 34
الإنصات للكوارث 35
سلطة الضمير 36
قيود الكلمات- إنسانية 37
مدرسة المِحَن 38
اكتمال الصورة 39
صُنَّاع الحياة 40
حقائق مريرة 41
ضربة قاضية 42

حرية الاختيار 43
آفةُ الإطراء 44
الخجل الحقيقي 45
صفحة الحياة 46
عواطف ومشاعر 47
وجع القلق 48
الإنسان الشرير 49
صديقي الأديب 50
إجابات ناقصة 51
أطياف الأفكار 52
جاءت المحنة 53
قصقصة الأجنحة 54
ممالك القلوب 55
انتحار المنطق 56
قوة المعرفة 57
طوفان الخوف 58
أموات وأحياء 59

إنكار وتبرير 60
نظرات الحبيب 61
خريطة للحياة 62
أشجان ونفوس 63
طريق الرضا 64
عيون البشر 65
أجنحة الذكريات 66
التنبؤِ بالعواصف 67
فصول الكتاب 68
الجراثيم أنواع 69
ظل الذكريات 70
بكاء الرجال 71
حشيش وخمور 72
طيور الربيع 73
رباطة جأش 74
هل نرضى؟ 75
خروج الوحش 76

الفراغ الجميل 77
الخادمة والسيدة 78
معنى الحماقة 79
أغبياء وأبطال 80
حكمة الخوف 81
محنة الوباء 82
غيبِ الموتِ 83
القلق الفتَّاك 84
حديقة العلماء 85
تأملات في سطور 87